« كن ملاكا ... »

« بغير جناحين ؟ »

« وافتح البوابة »

« آه ... أفتح البوابة لتخرج السيارة »

« كيف عرفت ؟ »

« بذكائى ... ألم أقل لك إنى ذكى ؟ »

فرمت إلى نظرة من عين ساجيـة ثم قالت بابتسام تعالج أن تمنع أن ينقلب قهقهة عالية :

« كن ملاكا ... »

فوقع فى روعى من ابتسامتها أن فى الأمر مالا يدخل فى طوق الملائكة ، فزمت ولم أقل شيئاً ، وغالبت هى الضحك ثم قالت :

« وكن اليوم عمى »

« عم ... عم ... عمك ... يا خبر ... ! »

قالت : « اسمع ... إن لى صديقة تريد أن تخرج للقاء خطيبها ، ولـكن أباها لا يدعها تخرج وحدها ، وقد اتفقت معها على أن أمر بها لنذهب إلى السينما ... فهل فهمت لماذا أريد منك أن تكون اليوم عمى ؟ »

فقلت وأنا أتوجع : « فهمت أنى سأذهب إلى سينما لم تكن لى على بال ، وأنى سأمثل دوراً لا أرتاح ... من هذه الفتاة ؟ »

قالت — كأن هذا جواب السؤال — « جميلة جداً ولـكن احذر أن تغازلها »

فسألتها : « هل سأكون عمها هى أيضاً ؟ »

فضحكت وقالت : « ستكون عمنا اليوم ... واحذر أن تغلط »

« ولـكن سأغلط على التحقيق . إن العمومة حادث جديد فى حياتى ، فاذا اخطأت فى تمثيل الدور فلا عجب .... لم أتدرب عليـه قط .... هل قلت خطيبها ... أم حبيبها ؟ »

فقالت : « باسلام ... وما الفرق ... ؟ شىء غريب »

قلت : « صحيح لا فرق ... ولـكن عمك ؟ كيف يمكن ألا أغلط ... ثم إنها مهمة صعبة .... لا أشعر أنى سأرتاح إليها »

فقالت بدلال سلبنى كل قدرة على المقاومة : « كن ظريفاً ... كالعادة »

فضحكت مسروراً وقلت : هل يسمح لى أن أكون عماً ظريفاً .؟ »

قالت : « لا مانع . ولـكن احذر أن تغازلها »

قلت : « لقد شوقتنى إليها ... أغريتنى بها . فهل هى حقيقة ظريفة ؟... أعنى تستحق أن أرضى من أجلها وفى سبيلها أن أكون عما .؟ »

قالت : « جدا ... موت ... »

قلت : « ياحفيظ يارب ... والآن يابنت الأخ

العزيز — وإن كنت لا أعرف لك أخاً ولا أختاً — تفضلي وتخلي عن القيادة ... »

قالت : « لماذا ؟ ... إني أحب أن أقود السيارة ... هل أخطأت ؟ ... »

فتركت سؤالها بلا جواب ، وقلت بلهجة الأعمام : اسمعي الكلام يا بنت ... »

فضحكت ومالت بالسيارة الى الرصيف وتخلت لي عن مقعد السائق

وبلغنا البيت — لا أدري كيف ولا من أين فقد أطارت صوابي كثرة التعاريج وضيق الحارات ، ولكن البيت كان في فضاء رحيب وإن كان غير نظيف . ونزلت هي وبقيت أنا في السيارة . ومضت دقائق وأنا أفكر في عمها وفي الفتاة التي ستقول لي « يا عمي » ، وفي كيف أطيق الصبر على هـذه العمومة ، وإذا بفتى يقول لي : « اتفضل يا عمي » فصحت به — فقد فاجأني — « إيه ؟ .. » وكان مؤدباً مهذباً ووسيماً فسيماً فحدثت نفسي أن الفتاة التي ستدعوني عمها لا بد أن تكون جميلة — إذا اطرد القياس ، وتنهدت لأني سأكون عمها أيضاً ... وللعمومة قيودها ، ولا بد من الاحتشام ... فلاحول ولا قوة إلا بالله !

وقال الفتى : « تفضل حتى تلبس أختي »

فشكرته وأغلقت أبواب السيارة فقد كان الأطفال كثيرين في الحارة ، والأطفال ملاعين يعبثون بكل شيء كما كنت أفعل لما كنت طفلا ، ومشيت وراءه الى بيت حديث البناء ، فاستقبلني وراء الباب رجل وقور ظننته أول الأمر من السكان ، ولكنه مد يده الي وقال — كما قال الفتى — « تفضل » ، فقلت لنفسي : « إن تمثيل دور العم ينبغي أن يبدأ هنا ... حالا ... فان هـذا الرجل الطيب لا بد أن يكون هو الأب السني الذي مد الله في عمره الى زمن غير زمنـه ... » وقلت له : أرجو ألا تكون درجات السلم كثيرة ... فان السلالم تتعبني ... جداً ... »

فطمأنني الرجل وأكد لي أن الدرجات ثلاث فقط — ودار وعدّها — وأشار الى حجرة ، وأومأ الى أن أدخل ، فاذا فيها فتاتان — التي جعلتني عمها والأخرى التي سأكون عمها — أعني التي تريد أن تخرج لتلقى حبيبها أو خطيبها ... سيان كما قالت صاحبتي ... وحدقت في وجهها وأنا أسلم عليها وأطلت النظر اليها وأبقيت يدها في يدي ، وأنا أسألها عن صحتها ، وأثني على بيتها وأذم لها الطريق اليه

وكانت كفها رخصة ووجهها حلواً سمحاً وعيناها واسعتين ولونها صافياً وقدها رشيقاً

وجلست وجلس الرجل إلى جانبي يحييني ويرحب « بالعم » ، وجاءت خادمة « بالماشوراء » فاعتذرت وقلت إن معدتي لا تهضمها وإني أظن أني شـخت ، فقال الرجل : « العفو » وقالت صاحبتي : « صحيح .. معدته ضعيفة .. والطبيب ينهاه دائماً عن أكل شيء بين الوجبتين » ، وجاءت القهوة وناولوني فنجانة ، فصببت القهوة من الفنجانة في الطبق ، كما رأيت بعض الشيوخ يفعلون ، وكان هـذا أبرع ما وفقت إليه في أدائي لدور العم ؛ وكانت صاحبتي تغالب الضحك بجهد ، ثم تنظر إلى وتعض شفتيها محذرة من الغلط ، ثم سألني الرجل عن السينما التي اخترتها ، فقلت له : « ياسيدي لقد ألحت هذه البنت الملعونة (والعمومة تسمح بهذه اللعنات) أن آخذها إلى السينما مع صديقة لها فاعترضت لأني لا أكتمك أني لا أطمئن إلى الصداقة بين البنات ، ولكني أحمد الله .. حمدته وشكرته لما رأيتك .. شعرت بالاطمئنان فما يمكن أن تكون بنتك إلا فتاة مهذبة .. (وهنا شكرني

واستغفر الله كما لا أحتاج أن أقول) فرأيت أن أختار شريطاً غير غرامى . . آثرت شريطاً من الأشرطة البوليسية . . وهى كلام فارغ ، ولكنها خير وأسلم عاقبة من الأشرطه الغرامية ، وأظن أنك توافقنى . . أليس كذلك ؟ »

فوافق وشكر وأكد لى أنه تشرف بمعرفتى ، ولا أكتم القارىء أنى خجلت منه فى هذه اللحظة وأن نفسى حدثتنى أن أصارحه بالحقيقة من أولها إلى آخرها ، ولم يصدنى عن ذلك إلا التحرج من الزج بنفسى فى مأزق آخر لا يسهل الخروج منه ، وإذا صارحته بأنى لست عماً ولا قريباً فماذا يكون موقفى . . بل ماذا يكون موقف صاحبتى التى جاءت بى إلى هنا وادعت أنى عمها . . ثم إنى أريد أن أرى هذا الحبيب أو الخطيب — سيان — الذى تريد أن تلقاه وتحتال هى وصاحبتها على هذا النحو المحرج — لى — لتلقاه ؛ وقد أستطيع أن أصنع خيراً إذا رأيته فان لى لفراسة

وأخيراً نهضنا ، وركب معنا الفتى — أعنى أخاها — فاحتفظت أمامه بمقتضيات العمومة على فرط ثقلها حتى تركنا حيث يريد ، وكانت الفتاتان على القصد الخلق ، فلما نزل الفتى وأمنت أن يسمعنى قلت لها وأنا أمضى بالسيارة على غير هدى : « هل أتقنت دور العم ؟ » ، فضحكت الفتاتان ، فخيل إلى لحظة أن الفتاة التى جئنا بها تعرف أنى لست عماً ولا ابن عم ولكن صاحبتى قالت شيئاً فهمت منه أنها تريد أن أمضى فى تمثيل الدور فسخطت وقلت : « والآن إلى أين بنا » ، فقالت الفتاة الجديدة : « إلى . . . من فضلك . . . أعنى إذا سمحت » ، وقالت الأخرى — صاحبتى — « بالطبع . . . إن عمى سبور . . . » ، وضحكتا من هذا العم « الاسبور » ، ومن حقهما أن يضحكا . .

ودرنا نبحث عن بيت الخطيب — أو هكذا ظننت ، ولكن الحقيقة أننا مررنا به ، وأن الفتاة رأته فى الشرفة غير أنها خجلت أن تدعو عمها إلى الوقوف وتنزل ، وأحسست أن جو السيارة لا يخلو من ركود ، فوقفت فى بعض الطريق واتجهت إلى الفتاة وسألتها : « هل عرفت البيت ؟ . وهل رأيت فيه صاحبك ؟ » فهزت رأسها أن نعم واضطرم وجهها — حياء على ما أظن — وتولت صاحبتى الكلام والايضاح ، فقلت لها : « حسن . ابقيا أنتما هنا وسأنزل إليه »

ولما وقعت عينى عليه وهو واقف فى الشرفة ومعه أخته أشرت إليه أن ينزل فلم يفهم ، فصحت به : « تعال . . . أيوه انت . . . »

وسلم مرتبكا وقال : « أفندم »

فقلت بعنف : « لا أفندم ولا يحزنون . . . كيف تكلف الفتاة أن تقطع إليك الكرة الأرضية ولا تحشم نفسك عناء السعى اليها ؟ . . . . . ثم إن أباها لا يمكن أن يقبل »

فقاطعنى وقال بلهفة : « هل يعرف ! . . »

قلت : « اسمع . . . هذه العلاقة يجب أن تكون رسمية علنية وإلا فالواجب أن تنقطع . . . الآن »

وقال بصوت خافت : « بالطبع »

فالتفت اليه وقلت بصرامة : « بالطبع ماذا ؟ . . . تقطع ؟ . . . أو تستمر على وجه القبول ؟ »

قال : « تستمر بالطبع . . . إنى أريد أن أتزوجها »

فوقفت وسألته : « وماذا يمنعك ؟ . إن الزواج ليس من وسائله هذه المقابلات السرية التى لا يعلم بها والدها . . . والآن تعال وأطمئن . . . »

ومضيت به الى السيارة وكان يمشى مطأطئ

الرأس . وأحسب أنى نغصت عليه هذا اللقاء ، ولكنى لم أكن أستطيع غير ذلك فقد كانت صورة الأب الوقور الطيب الذى لا تخالجه ريبة ماثلة أمام عينى ، وقد ترك لى ابنته مطمئناً الى ومعتمداً بعد الله على . ولو كنت لم أدخل بيته ولم أر وجهه ولم يأتمنى على فتاته لما أحسست أن على تبعة . وشق على أن يكلفها هذا الفتى أن تذهب اليه فى آخر الدنيا ، وهو قاعد فى بيته لا يتحرك ولا يسعى ، ولا يبالى ما تتحمل الفتاة فى سبيله من عناء وما تغريها به الرغبة فى لقائه من احتيال وكذب وخداع . فنويت أن أحسم الأمر

وهم بالركوب فجذبته من كتفه ، ونأيت به قليلاً وسألته : « الى أين أولاً ؟ ... قل لى ماذا تنوى أن تصنع ؟ إنى لا أريد أن أضايقك ولكن هذه الفتاة الساذجة فى ذمتى فهل تستطيع أن تكون رجلا ؟ »

فانقد وجهه وتلعثم ثم استطاع بجهد أن يقول لى إنه رجل شريف وإنه لا يبغى بها سوءا وسألنى وقد وجد لسانه : « هل حضرتك ... »

فقاطعته قائلا : « لا يعنيك من أنا ... تعال ... يكفيك أنى قد وثقت بك ... تعال »

فسره هذا . وهل هو إلا طفل ؟ . . وإنى لأكون حماراً غبيا بليداً إذا لم أستطع أن أستولى على زمامه ... والتفت إلى صاحبتى ونحن راجعون بالسيارة وقلت : « وأنت أيضاً ستطيعين عمك » فمالت على وقالت : « إيه ؟ » قلت : « لا شىء ... لقد شئت أن أكون لك اليوم عماً . فاستنكرت أن أكونه فى أول الأمر ولكن الدور حلا لى ... أعجبنى . . . فأنا الآن عم حقيق . . . سأظل عماً ظريفاً ... ولكنى عم على كل حال فلا تنسى هذا »

فسألتنى بصوت خفيض : « ماذا جرى ؟ طمئنى ... »

قلت : « لا شىء ... اطمئنى ... ولكن أطيعينى بلا سؤال أو تردد »

وأنا رجل لا أحب التلكؤ ولا أطيق البلادة . ولا صبر لى على التلوى واللف والدوران . وإيمانى عظيم بأن الخط المستقيم هو أقرب مسافة بين نقطتين . والذى يصنعه غيرى فى يوم أصنعه أنا فى لحظة لأن أعصابى لا تحتمل البطء . لذلك مضيت إلى بيت الرجل وكانت كل من الفتاتين تسألنى : « إلى أين من هنا ؟ » وكانتا أول الأمر تتعجبان وتضحكان ثم وجمتا لما دنوت من البيت وانتفى كل شك فى أنى أقصد إليه

وقلت للشاب وأنا أنزل وأجره : « تعال أعرفك بأبيها ، فما أستطيع أن أستصحبك معها بغير ذلك ... أعنى بغير اذنه ... أتفهم ؟ »

وكانت لهجتى صارمة أو قل انها كانت حازمة وان خلت من العنف ، فسار معى . وجاء الرجل مستغرباً عودتنا قبل موعد انتهاء السينما فقلت له بلا تمهيد : « هذا الشاب يريد أن يكون نسيبك ... يحب بنتك هذه ... وأنا أعلم أن هذه مفاجأة ... ولكنى لا أدعوك الى تزويجه الآن ... إنما رأيت من واجبى أن أخبرك ... وسيعطيك اسمه وعنوانه ويحدثك عن نفسه وأهله وأصله وفصله فيما بعد ... فاذا وافقت ورأيته أهلا لذلك فهنيئاً لك وله وللبنت والافارمه ... وقد أخبرتك بهذا ... فاجأتك به لأنى لا أستطيع أن أدعه يصحبنا إلى السينما بغير علمك وإذنك ... فهل تسمح له بذلك ؟ »

وتشهدت لما سمعت الرجل — هذا الرجل الوقور الطيب — يأذن لى فى ذلك ويشكرنى أيضاً ... تالله ما أطيبه ! ...

وعدنا الى السيارة فركبناها فى صمت فقد بهت الشاب واستعصى عليه الكلام . وله العذر .

ودخلنا السينما فجلست بين الفتاتين وجلس الشاب على يمين صاحبته التى جعلتها خطيبته برضاه أو على الرغم منه ، لا أدرى ، فعلم ذلك عند الله ؛ وكانت الفتاتان لا تعرفان شيئاً مما حدث لأنهما لم يدخلا البيت معنا ولم نقل لهما شيئاً فى السيارة فلت على صاحبتى وقلت لها : « الآن تستطيعين أن تهنئى ... ما اسمها ؟ . . لقد صارت خطيبته حقاً وصدقاً ... لا كذباً يا ملعونة ... »

فراحت تثرثر وتسألنى : «ايه ... ماذا تقول... ماذا حدث ... كيف كان هذا ... ماذا صنعت حين دخلت البيت ... ؟ »

فوضعت كفى على فمها . وكيف بالله كنت أستطيع أن أسد هذا الطوفان من الأسئلة بغير ذلك ؟ وقد وقف الطوفان ، ولكن اللعينة عضتنى فكدت أصرخ لولا أننا فى سينما . وتصببت وتجلدت واتجهت الى الشاب وقلت له وأنا أمد كفى المعضوضة : « بسها ... إذا كنت مسرورا » فباسها — بطنا وظهرا — مرة وثانية وثالثة . فاستحييت وانتزعتها منه ، وحولت وجهى الى صاحبتى وذهبت أحدثها بما كان ، وإنى لكذلك وإذا بالفتاة الأخرى تجذبنى اليها وتدير وجهى الى وجهها وتطوقنى بذراعيها وتقبل خدى ... أى والله ولا تستحى ... فدهشت ونظرت اليها ... ثم حولت وجهى عنها . فقد كانت الدموع على خديها

وأعترف أنى لم أر شيئا من الشريط ... نعم نظرت ولكنى لم أفهم ... لم يكن بالى الى ما أرى وكنت أفكر فى هذه الفتاة وفى مصيرها مع فتاها لو لم يلهمنى الله أن أكون مجنوناً وأن أصنع ما صنعت وهل يفعل هذا سوى مجنون ؟ ولكنه جنون أثمر خيرا

وقالت الخطيبة ونحن خارجون : « عمى ... لاتتركنا »

فتنابيت وقلت : « هل سأظل عما لك أيضاً الى الأبد ... »

فجذبت ذراعى وقالت بلهجة المستعطف : « لا تتركنا ... فاهم »

قلت : « سمعت . وفهمت . وأطعت . »

قالت صاحبتى : « أما إنك لعم ... »

فلم أقل شيئا وفتحت أبواب السيارة وأشرت اليهم بكلتا يدى وقلت : « بيتك . بيتك . بيتك » كما يقال للدجاج

وتعشينا جميعا فى بيت الرجل الطيب . ولكنى قبل أن أتناول شيئا من طعامه قلت له :

« سأقول لك شيئا . لست عما لهذه الفتاة . هى صديقة وجارة . أعرف أهلها جميعا من زمان طويل . وقد ألفت أن تدعونى عمها . حكم العادة فقط . وأنا أكره هذه العمومة ، ولذلك أخلعها أمامك ، وأرجو أن تعيننى على التخلص منها . فما قولك ... ؟ »

وكانت يداى على ركبتى فى انتظار حكمه ، فأحسست راحتين عليهما فالتفت فاذا الفتاتان تنظران إلىّ بابتسامة الرضى والسرور ، فرددت عينى الى الرجل استعجله الحكم فقال : « تفضل ياسيدى تفضل »

فتشهدت ورفعت يدى الى المائدة لآكل وإذا بالخطيبة تنهض وتميل على عنقى وتقبلنى

كلا ... إنها فتاة لا تستحى ... أبدا ... أبدا

ابراهيم عبد القادر المازنى